مقاومة الخلافة العباسية للتسلط السلجوقي

اولاً - السلاجقة والخلافة العباسية (447 -512 هـ)

كانت الخلافة العباسية قد اضطرت تحت وطأة الظروف القاسية التي أحاطت بها وهددت كيانها الى تدعيم علاقاتها مع السلاجقة الذين تعاظمت قوتهم بعد قضائهم على الغزنويين وتحقيقهم انتصارات متلاحقة أتاحت لهم السيطرة على ايران والتطلع للحصول على تأييد الخلافة العباسية واعترافها لإضفاء صفة الشرعية على حكمهم فبادر طغرلبك سنة 437 هـ الى الاتصال بالخليفة القائم بأمر الله مؤكدا ولاءه وطالبا الحصول على التقليد بحكم البلاد التي تقع تحت سيطرتهم، وقد وجد الخليفة في هؤلاء السلاجقة قوة جديدة يمكن أن يكون لها أثرها الخطير في مجريات الأمور في حاضرة الخلافة العباسية، فأستجاب لطلبهم رغبة في التقرب اليهم، وعرض على السلطان السلجوقي الحضور الى بغداد.

والواقع أن الخليفة القائم بأمر الله كان يفكر بشكل جدي في الاستعانة بالسلاجقة واتخاذهم درعاً واقياً للخلافة التي كانت تعاني من ظروف حرجة بسبب استبداد البساسيري بالسلطة واستفحال أمره ببغداد، ومما زاد في خطورة مركز الخلافة تقرب البويهيين من الفاطميين ، وميل البساسيري نفسه وتأثره بالمذهب الفاطمي بعد ان ساءت علاقته بالخليفة القائم بأمر الله هذا بالاضافة إلى الخلاف الذي كان مستفحلا بين البساسيري - قائد جند الأتراك والملك الرحيم أبي نصر البويهي .

وهكذا دخل طغرلبك بغداد سنة (447 هـ / 1055 م) ، وقبض على الملك الرحيم و قضى على آخر امل للبويهيين في الحكم، واسدل الستار على دولتهم لتحل محلها الدولة السلجوقية، وتحقق للعباسيين ماكانوا يهدفون اليه من تحالفهم مع القوة الجديدة، غير أن طغرلبك هذا لم يلبث أن تعاظم نفوذه بعد الانتصارات التي حققها ضد اعداء الخلافة في الوقت الذي أضمحل فيه مركز الخليفة العباسي ولم يبق له دور يذكر في سياسة الدولة حتى أصبح يعيش من اقطاعات مقررة تكفي لسد نفقاته. وبالغ السلطان السلجوقي في تحدي الخليفة حيث امر بان تحمل موارد العراق المالية إلى خزانته بدلا من خزانة الخليفة .

ولم يكتف طغرلبك بذلك فحسب بل طلب الزواج من ابنة الخليفة القائم تدعيما لسلطانه السياسي وربط الأسرة السلجوقية بالبيت العباسي، وقد قوبل طلبه هذا بالرفض، الا أن الخليفة عاد ووافق على هذا الزواج مضطرا في سنة 454 هـ .

ويبدو أن السلاجقة أحسوا بالفتور الذي طرأ على علاقاتهم بالخليفة القائم فعمدوا إلى توثيق هذه العلاقة واعادة الثقة إلى نفس الخليفة وتحقق لهم بزواج الأخير من أرسلان خاتون (خديجة) ابنة اخي السلطان طغرلبك في (المحرم من سنة 448 هـ) وعلى الرغم من هذه المصاهرة فقد اقام طغرلبك ببغداد اكثر من ثلاثة عشر شهراً دون أن يحظى بمقابلة الخليفة العباسي والجدير بالذكر أن السلاجقة قد اكتفوا بأن يحكم العراق نواب من قبلهم يتمتعون بسلطات عسكرية وادارية واسعة، ووضعوا تحت تصرفهم حامية من الجند السلاجقة لضمان سيطرتهم التامة على البلاد، وفوضوا إلى هؤلاء الحكام امر ضمان مدن

العراق وارسال الأموال إلى خزانة السلطان السلجوقي مباشرة، ولم يتخذوا بغداد مقرا لحكمهم كما كان الحال في عهد السيطرة البويهية .

وبعد وفاة طغرلبك سنة 455 هـ سعى ابن أخيه السلطان ألب ارسلان (455-465 هـ) للحصول على التفويض بالسلطة من الخليفة القائم بامر الله وعمل على التقرب اليه و كسب رضاه، فامر باعادة أبنة الخليفة _ زوجة طغرلبك الى بغداد لعلمه أن زواجها كان قد تم بغير رضا ابيها، ومنحها خمسة الاف دينار، وأرسل معها وفدا يقوم على خدمتها، فرحب الخليفة برسل السلطان ومنحهم التقليد له بالسلطنة .

وقد امتد حكم الب ارسلان هذا عشرة سنوات وتولى السلطنة بعده ولده ملكشاه وأقره الخليفة وخطب له على منابر بغداد في شهر رجب من سنة 456 هـ ، غير أن علاقة ملكشاه بالخليفة المقتدي بأمر الله (467 -487 هـ) قد شهدت تدهورا خطيرا في السنة الأخيرة من حكم السلطان السلجوقي الذي دخل بغداد سنة (485 هـ) وارسل الى المقتدي يقول: (لابد أن تترك لي بغداد، وتذهب الى اي بلد شئت ، فانزعج الخليفة ، و قال: ولو شهرا ، قال : ولا ساعة واحدة) وتمادى السلطان في اذلال الخليفة الى حد التوسط بوزير السلطان الذي وافق على أعطائه مهلة عشرة ايام ولم ينج الخليفة من هذه المحنة الا بموت ملكشاه قبل نهاية المدة .

على ان وفاة ملكشاه سنة 485 هـ قد سجلت نهاية واضحة المعالم لسلطان السلاجقة الحقيقي وبداية تفكك دولتهم وانقسامهم على أنفسهم، فقد نشب النزاع على السلطنة بين خلفاء ملكشاه، فاتخذت الخلافة موقف المتفرج من الصراعات السلجوقية، فكانت تستجيب لكل غالب منهم فتصدر له الاعتراف بالسلطة وتخطب له على منابرها ، وقد تعترف بأكثر من سلطان في وقت واحد فاشتدت حاجة السلاجقة في هذه المرحلة الى كسب تأييد الخلافة ، فاستقبل الخليفة في بغداد بركياروق بن ملكشاه وخلع عليه ، ولقبه (بركن الدين)، وعندها استفحل أمر أخيه محمد ورجحت كفته لم يتردد الخليفة في قطع خطبة بركياروق و الاعتراف بمحمد سلطانا على السلاجقة وتلقيبه (بغياث الدنيا والدين) .

وظلت الخلافة بين هذه الجهود التي تعمل على اضعافها وسلب سلطانها، وبين مقاومتها لهذه السيطرة الظاهرة حينا والمستترة احيانا، ترقب الفرصة لاستعادة نفوذها .

ثانيا : فترة انتعاش الخلافة العباسية (512- 552 هـ)

لم تلبث الخلافة ان مرت بدور جديد من الأفاقة حين تولى المسترشد بالله الخلافة سنة 512 هـ وقد عرف الخليفة الجديد بعلو الهمة والعزم على استرداد بعض ما كان للعباسين من هيبة ونفاذ الكلمة، وقد ساعدت الظروف التي يمر بها السلاجقة انذاك الخليفة على تحقيق أهدافه، فعمل على استغلال تلك الظروف وشرع بالتدخل في شؤون السلطنة السلجوقية متظاهرا بالدفاع عنها، وحرص على الامعان في اضعاف قوة السلاجقة مستفيدا من الخلافات التي نشأت بين اخوة السلطان محمود الثلاثة الذين كانوا يعملون بتوجيه من اتابكهم فيخالفون رغبات السلطان ويخلقون المشاكل ويثيرون عليه أمراء الاطراف، فتراه يراسل مسعوداً ويحثه على مصالحة أخيه السلطان محمود ويدعوه إلى ترك العصيان، واتصل بالأمير(دبيس) صاحب الحلة ودعاه الى مصالحة السلطان ايضا، غير أن دبيسا وجه انذارا للخليفة بتنفيذ مطاليب معينة، وجعل المدة خمسة ايام وإلا قدم بغداد محاربا، فاستعد الخليفة لمواجهته واستدعى شحنة بغداد ليتولى قيادة جيش السلطنة، كما أرسل إلى أمراء الاطراف يستدعيهم للمشاركة في الدفاع عن دار الخلافة، فتوافد عليه سكان المناطق المجاورة و حضر(سلمان بن مهارش) امير الحديثة فيمن معه من بني عقيل، و(قرواش بن مسلم العقيلي) وغيرهما، ونودي ببغداد بأن لا يتخلف أحد من الأجناد وانه من رغب من العامة الاشتراك في العسكر فليحضر، فقدمت أعداد كبيرة منهم، وفرقت فيهم الاموال والسلاح .

ونجح الخليفة في هزيمة دبيس بن مزيد في المحرم من سنة 517 هـ. وأدى هذا الانتصار الحاسم على دبيس إلى استرجاع الخليفة لنفوذه، فأخذ يباشر سلطاته الدنيوية بنفسه، وشرع ببناء سور بغداد، كما أقدم على اعفاء وزيره احمد بن نظام الملك الذي كان قد فرضه عليه السلاجقة، واستدعى وزيره عميد الدولة ابن صدق من الحديثة فأسند الوزراة اليه.

وحين وجد الخليفة المسترشد بالله ان الأمير (اقنسنقر الب البرسقي)متولي شحنكية بغداد قد قصر في واجبه تجاه دبيس طلب من السلطان محمود عزله من منصبه و اعادته الى الموصل، فاستجاب له السلطان وارسل الى البرسقي يأمره بالعودة الى مقر عمله، لاستئناف حركة الجهاد ضد الفرنجة، وعهد بشحنكية بغداد الى سعد الدولة يرتقش الزكوي.

والواقع أن الخليفة المسترشد كان يدرك تماما بان السلطان محمود لم يكن يمثل القوة الحقيقية للسلاجقة، انما يمثلها عمه السلطان سنجر الذي يتولى امر خراسان ويعترف له الجميع بالزعامة والسلطنة، لذلك عمل على تقوية جيشه به عن طريق مصاهرته و كسب مودته .

وعندما صمم السلطان محمود على قصد بغداد بهدف فرض سيطرته على الخلافة و تحديد سلطة الخليفة المتزايدة حاول المسترشد ان يؤخر مجيئه متعللاً بعدة اسباب، الا ان السلطان رفض ذلك وأصر على مواصلة التقدم نحو دار الخلافة، مما دعى الخليفة إلى الاستعداد لملاقاة السلاجقة. واجتمع لديه من الجند حسب ما رواه المؤرخ ابن الأثير ثلاثون ألفا، ولما اقترب السلطان من بغداد امر الخليفة بجمع السفن والعبور إلى الجانب الغربي، كما أمر باغلاق ابواب قصره عدا باب النوبي، وحين وصل السلطان بغداد لم يجد احدا من جند الخليفة في الجانب الشرقي منها، فعمل على اقناع الخليفة بالرجوع إلى داره، الا انه رفض ذلك، ثم قرر بعدها العبور الى الجانب الشرقي بجيشه دفعة واحدة وهاجم جيش السلطان واضطر إلى الهرب خارج بغداد، ثم باشر بحفر الخنادق، غير أن الأمور سرعان ما تغيرت لصالح السلاجقة وذلك بعد أن انضم عدد من الأمراء إلى السلطان محمود ، فاضطر الخليفة الى مصالحته و القبول بالشروط التي فرضت عليه والتي فقد الخليفة بموجبها ماكان قد حصل عليه من قوة ونفوذ حفاظا لما تبقى من هيبة وكرامة .

وفي سنة (525 هـ/1130م) توفي السلطان محمود، فحدث الخلاف بين ولده داود والملك مسعود بن محمد وطالب كل منها الخليفة أن يذكر اسمه في الخطبة، غير أن المسترشد رفض ذلك متذرعا بان الأمر يعود الى السلطان سنجر، وكان يهدف من وراء ذلك ارباك أوضاعهم السياسية وزيادة الشقاق بينهم، وكسب رضا السلطان سنجر الذي كان آنذاك في خراسان بعيدا عن مركز الخلافة، غير أن الأمور ما لبثت ان اتخذت مجرى آخر لصالح الخلافة، فقد عرض كل من الملك مسعود واخيه سلجوق شاه على المسترشد محالفتهما ضد عمهما سنجر مقابل التعهد بطاعة الخلافة وتنفيذ اوامرها ، واشترط عليهما الاستقلال بالعراق عن سلطة سلاجقة فارس، وأن تكون السلطة لمسعود وولاية العهد لاخيه سلجوق شاه.

و هكذا تم الاتفاق بين الجميع على قتال سنجر الذي كان في طريقه آنذاك نحو العراق لتأديب اولاد اخيه، في نفس الوقت الذي كان قد اوعز فيه إلى عماد الدين زنكي ودبيس بن مزيد على مهاجمة بغداد، لذلك فما ان وصل الخليفة الي خانقين حتى شعر بالخطر الذي يهدد دار الخلافة، فقرر العودة للدفاع عنها، وتمكن من تحقيق الانتصار على حلفاء سنجر، ثم تابع زحفه نحو الموصل وحاصرها ثلاثة اشهر ثم عاد الى بغداد بعد أن أخضع تكريت، وكانت هذه السلسلة من الاعمال قد اكدت قوة الخلافة وقدرتها على الصمود، كما أظهرت للسلاجقة ان العراق لم يعد خاضعا لسلطانهم .

اما مسعود فقد انهزم أمام عمه سنجر بالقرب من دينور عام 526 هـ ، واصبح طغرل بن محمد ـ أخا مسعود ـ سلطانا على سلاحقة العراق ولقب بطغرل الثاني واضطر مسعود للتوجه نحو همذان لمحاربة اخيه طغرل في العام التالي فاستولى على هذه المدينة وهزم أخاه وظفر ثانية بعرش سلاجقة العراق .

غير أن الحرب ما لبثت أن تفجرت بين الخليفة المسترشد والسلطان مسعود بحجة أن الخليفة لم يظهر حماية كبيرة للمسير لقتال خصومه. وكان عددا من الأمراء قد التجئوا إلى الخليفة بعد وفاة طغرل الثاني سنة 529 هـ مما شجع المسترشد على قتال مسعود، فأمر بحذف اسمه من الخطبة في بغداد ثم خرج لقتاله ، غير انه انهزم ووقع في الأسر ، وانتهز الباطنية فرصة وجود الخليفة دون حراسة قوية ، فوثبوا عليه وقتلوه ومثلوا به ابشع مثيل في ذي القعدة من سنة 529 هـ ، وهكذا سقط الخليفة المسترشد شهيداً من أجل استقلال الخلافة واعادة هيبتها ونفوذها فكان مثلا لمن جاء بعده من الخلفاء في مقاومة التسلط السلجوقي .

بويع للراشد بالخلافة بعد أبيه المسترشد فكان عهده امتداد للصراع بين الخلافة والنفوذ السلجوقي ، فلقي المصير نفسه ، بعد أن الحق الهزيمة بقوات السلطان مسعود، وقد اثارت صور هذا الاستشهاد نفوس ابناء العراق والهبت صدورهم لنصرة الخلافة وتأييدها ضد التسلط الذي تمارسه العناصر الدخيلة، الأمر الذي أدى إلى تدعيم مركز الخلافة واضعاف موقف السلاجقة وانهيار دولتهم تدريجيا .

وقد قضى السلطان مسعود مدة حكمه في اخماد الفتن والتخلص من المتمردين على حكمه، وتمكن من فرض سيطرته على المناطق الخاضعة لحكم سلاجقة العراق حتى وفاته في (رجب من سنة 547 هـ/ 1152 م) ، وقد كانت وفاته إيذانا بانهيار نفوذ السلاجقة في العراق ((ولم تقم لهم بعده راية يعتد بها ولا يلتفت اليها)) .

وتحرر الخليفة المقتفي لأمر الله من العهود التي كان قد ارتبط بها امام السلاجقة ونشط لاستكمال سيطرته على البلاد، فأحكم نفوذه على الحلة والكوفة وواسط وجد في ملاحقة بقايا السلاجقة وطردهم من العراق، بعد أن تلقى اخبار الهزيمة التي مني بها السلطان سنجر امام الغز، فبادر بارسال جيش إلى تكريت وحاصرها بنفسه ثم توجه بعدها الى البصرة واخضعها لنفوذه، ونجح في تحقيق النصرعلى قوة سلجوقية كانت في طريقها إلى بغداد لفرض السلطان محمد على الخليفة وارغامه على اعلان الخطبة بأسمه.

وتأهب الخليفة المقتفي لمواجهة السلطان محمد في معركة فاصلة استعد لها سياسياً و عسكريا، وكان الأخير قد قرر الزحف نحو دار الخلافة بعد انتصاره على سليمان شاه . وارسل الى (قطب الدين مودود) أتابك الموصل طالبا موافاته بالعساكر، فأمده قطب الدين بفرقة من العسكر بقيادة نائبه (زين الدين على كوجك) ، فلما اقترب السلطان محمد من بغداد أرسل إلى الخليفة المقتفي طالبا الاعتراف به والخطبة باسمه، الا ان الخليفة رفض الأذعان لطلبه، وكان المقتفي قد اعد العدة لمواجهة الموقف فبالغ في تحصين بغداد، ونصب المنجنيقات، وبناء المراكب والسفن، وفرق السلاح على الجند والعامة ((فأجمعت العساكر عليه من كل مكان حتى صار عنده من العساكر مالم يعهد مثلها)) .

واشتد القتال بين السلاجقة وجند الخليفة، وطال الحصار دون أن ينال السلطان محمد من بغداد مأربا، وذكر ابن الأثير آن زين الدين قائد جند الموصل لم يكن جادا في القتال (لأجل الخليفة وللمسلمين، وقيل أن نور الدين زنكي ارسل الى زين الدين يلومه على قتال الخليفة) .

ووصلت في هذه الاثناء الاخبار الى السلطان محمد بدخول ملكشاه همذان وقيامه بنهبها وسبي نساء الأمراء وأبنائهم، فعظم ذلك على الجند، وتحرج موقف السلطان محمد أمام صلابة موقف الخليفة وصمود أهل بغداد ودفاعهم المجيد عن مدينتهم، فأرسل إلى حليفه زين الدين علي قائد جند الموصل يقول:- (انت وعدتني بأخذ بغداد وماحصلت، وخرجت من يدي همذان، وأخذ مالي وخربت بيوت اصحابي، وانا معول على المضي). إلا أن زين الدين حذره من الانسحاب وقال:- (متى رحلت بغير بلوغ غرض كنت سبب قلع بيت السلجوقية الى القيامة، ثم لا يقصدونك بل يقصدونا أيضا، ولكن اصبر حتى نمد الجسر ونعبر) .

وتم الاتفاق على عبور نهر دجلة والاشتباك مع جند الخليفة، فأشار زين الدين على السلطان بالعبور أولا على ان يتبعه هو بعساكر الموصل، الا انه لم يف بوعده وظل مع عسكره في الجانب الغربي، واشتد القتال وشدد السلاجقة حصارهم حول بغداد، وأبلى أهلها بلاء حسنا، ولم يمكنوهم من دخول المدينة، واضطر السلطان الى رفع الحصار والرحيل الى همذان في (الرابع والعشرين من ربيع الأول سنة 552 هـ) كما عاد زين الدين كوجك إلى الموصل .